سورة طـه



يقول الحق سبحانه في بداية سورة طه[1] :

﴿ طه ①﴾

تكلمنا كثيراً عن الحروف المقطّعة في بدايات السور ، ولا مانع هنا أنْ نشير إلى ما ورد في (طه) ، فالبعض يرى أنها حروف متصلة ، وهي اسم من أسماء الرسول ﷺ ، وآخرون يرونَ أنها حروف مُقطّعة مثل (الم) ومثل (يس) فهي حروف مُقطّعة ، إلا أنها صادفتْ اسماً من الأسماء كما في (ن) حرف وهو اسم للحوت : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا .. (٨٧) ﴾ [الأنبياء] و (ق) حرف ، وهو اسم لجبل اسمه جبل قاف .

إذن : لا مانع أن تدل هذه الحروف على اسم من الأسماء ،

---

(١) سورة (طه) هي السورة رقم ٢٠ في ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها (١٣٥) آية ، وهي سورة مكية في قول الجميع ، نزلت قبل إسلام عمر رضي الله عنه ، وهي السورة رقم (٤٤) في ترتيب نزول القرآن ، وقد نزلت بعد سورة مريم وقبل سورة الواقعة . وهي سورة مكية . وقد استثنى منها آيتان هما ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ (١٣٠) وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٣١) ﴾ [طه] . فقد ذكر السيوطي في « الإتقان في علوم القرآن » (١/٤٢) أنهما مدنيتان .

فتكون (طه) اسماً[1] من أسماء الرسول ﷺ خاصة ، وأن بعدها :
﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۝٢﴾ [طه]

لكن تلاحظ هنا مفارقة ، حيث نطق الطاء والهاء بدون الهمزة ، مع أنها حروف مقطعة مثل الف لام ميم ، لكن لم ينطق الحرف كاملاً ، لأنهم كانوا يستثقلون الهَمْز فيُخَفِّفونها ، كما في ذئب يقولون : ذيب وفي بئر ، يقولون : بير . وهذا النطق يُرجح القول بأنها اسم من أسماء النبي ﷺ .

وسبق أنْ أوضحنا أن فواتح السور بالحروف المقطَّعة تختلف عن باقي آيات القرآن ، فكُلُّ آيات القرآن من بدايته لنهايته بُنِيَتْ على الوَصْل ، وإنْ كان لك أن تقف ؛ لذلك فكل المصاحف تُبنَى على الوَصْل في الآيات وفي السور ، فتنطق آخر السورة على الوصل ببسم الله الرحمن الرحيم في السورة التي بعدها .

تقول : ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ۝٩٨﴾ [مريم] (بسم الله الرحمن الرحيم) حتى في آخر سور القرآن ونهايته تقول : ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦﴾ [الناس] (بسم الله الرحمن الرحيم) مع أنها آخر كلمة في القرآن ، وماذا سيقول بعدها ؟ لكنها جاءت على الوَصْل إشارة إلى أن القرآن موصولٌ أوَّله بآخره ، لا ينعزل بعضه عن بعض ، فإياك أن تجفوَهُ ، أو تظن أنك أنهيته ؛ لأن نهايته موصولة ببدايته ؛ فنقرأ ﴿ من الجنّة والناسِ ﴾ ﴿ بِسم الله الرحمن الرحيم ﴾ الحمدُ لله رب العالمين ....

---

(١) قال ابن عباس : معنى (طه) أي : يا رجل . ذكره البيهقي . وقاله الحسن وقال عكرمة : هو بالسريانية كذلك . ذكره المهدي . وحكى الطبري : أنه بالنبطية يا رجل . وهذا قول السدي وسعيد بن جبير . [تفسير القرطبي ٦/٤٣٣٧] .

إذن : فالقرآن كله في كل جملة وكل آية وكل سورة مبنيٌّ على الوَصْل ، إلا في فواتح السور بالحروف المقطّعة تُبنَى على الوقف (ألف - لام - ميم) ، وهذا وجه من وجوه الإعجاز ، وأن القرآن ليس ميكانيكا ، بل كلام مُعْجِز من ربٍّ العالمين .

لذلك ، فالنبي ﷺ أوضح استقلالية هذه الحروف بذاتها ، فقال « تعلموا هذا القرآن ، فإنكم تؤجرون بتلاوته ، بكل حرف عشر حسنات ، أما إني لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف ، بكل حرف عشر حسنات »[1] .

يقول الحق سبحانه :

﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ ﴾

الشقاء : هو التعب والنَّصَب والكدّ ، فالحق سبحانه ينفي عن رسوله ﷺ التعب بسبب إنزال القرآن عليه ، إذن : فما المقابل ؟ المقابل : أنزلنا عليك القرآن لتسعد ، تسعد أولاً بأن اصطفاك لأن تكون أهْلاً لنزول القرآن عليك ، وتسعد بأن تحمل نفسك أولاً على منهج الله وفِعْل الخير كل الخير .

فلماذا - إذن - جاءتْ كلمة ﴿ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ ﴾ [طه] ؟

هذا كلام الكفار أمثال أبي جهل ، ومُطعم بن عدي ، والنضر بن الحارث ، والوليد بن المغيرة حينما ذهبوا إلى النبي ﷺ وقالوا له :

(١) أخرجه الدارمي في سننه (٢/٤٢٩) كتاب فضائل القرآن - باب : فضل من قرأ القرآن من حديث عبد الله بن مسعود .

لقد أشقيتَ نفسك بهذه الدعوة[1] .

وقال رسول الله ﷺ : « إن الله بعثنى رحمة للعالمين »[2] .

فقد بعث رسول الله ليسعد ويسعد معه قومه والناس أجمعين لا ليشقى ويُشقِى معه الناس . لكن من أين جاء الكفار بمسألة الشقاء هذه ؟ المؤمن لو نظر إلى منهج الله الذى نزل به القرآن لوجده يتدخل فى إراداته واختياراته ، ويقف أمام شهواته ، فيأمره بما يكره وما يشقُّ على نفسه ، ويمنعه مما يألَف ومما يحب .

إذن : فمنهج الله ضد مرادات الاختيار ، وهذا يُتعب النفس ويشقُّ عليها إذا عُزلَتْ الوسيلة عن غايتها ، فنظرت إلى الدنيا والتكليف منفصلاً عن الآخرة والجزاء .

أمّا المؤمن فيقرن بين الوسيلة والغاية ، ويتعب فى الدنيا على أمل الثواب فى الآخرة ، فيسعد بمنهج الله ، لا يشقى به أبداً . كالتلميذ الذى يتحمل مشقّة الدرس والتحصيل ؛ لأنه يستحضر فَرْحة الفوز والنجاح آخر العام .

من هنا رأى هؤلاء الكفار فى منهج الله مشقة وتعباً ، لأنهم عزلوا الوسيلة عن غايتها ؛ لذلك شعروا بالمشقة ، فى حين شعر المؤمنون بلذة العبادة ومتعة التكليف من الله ، وهذه المسألة هى التى جعلتهم

---

(١) قال مقاتل : قال أبو جهل والنضر بن الحارث للنبى ﷺ : إنك لتشقى بترك ديننا ، وذلك لما رأياه من طول عبادته واجتهاده ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۝٢﴾ [طه] [ذكره الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول ص ١٧٤] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٢٥٧) من حديث أبى أمامة رضى الله عنه ، وتمامه : « إن الله بعثنى رحمة وهدى للعالمين وأمرنى أن أمحق المزامير والكفارات يعنى البرابط والمعازف والأوثان التى كانت تعبد فى الجاهلية » .

يتخذون آلهةً لا مطالبَ لها ، ولا منهج ، ولا تكليف ، آلهة يعبدونها على هواهم ، ويسيرون فى ظلها على حَلِّ شعورهم .

لذلك أوضح القرآن أنهم مغفلون فى هذه المسألة ، فقال : ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢)﴾ [طه]

أو يكون الشقاء :تعرُّضه لعُتاة قريش وصناديدها الذين سخروا منه ، وآذوه وسلَّطوا عليه سفهاءهم وصبيانهم ، يشتمونه ويرمونه بالحجارة ، وهو ﷺ يُشقى نفسه بدعوتهم والحرص على هدايتهم .

والحق تبارك وتعالى ينفى الشقاء بهذا المعنى أيضاً : ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢)﴾ [طه] أى : لتُشقى نفسك معهم ، إنما أنزلناه لتبلغهم فحسب[1] ، وقد تكرر هذا المعنى فى القرآن كثيراً فى مثل قوله تعالى : ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦)﴾ [الكهف] وقوله : ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤)﴾ [الشعراء]

وسبق أنْ ضربنا لذلك مثلاً - ولله المثَل الأعلى - برجل عنده عبدان : ربط أحدهما إليه بحبل ، وأطلق الآخر حُراً ، فإذا ما دعاهما فاستجابا لأمره ، فأيهما أطوع له ، وأكثر احتراماً لأمره ؟

لا شكَّ أنه الحر الطليق ؛ لأنه جاء مختاراً ، فى حين كان قادراً على العصيان . وكذلك ربك - تبارك وتعالى - يريد منك أن تأتيه حُراً مختاراً مؤمناً ، وأنت قادر ألاَّ تؤمن .

---

(١) أخرج الترمذى فى سننه (٣٣١٨) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما من حديث طويل أن رسول الله ﷺ قال : « إنما بعثنى الله مبلغاً ، ولم يبعثنى مُعنِّتاً » . قال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » .

والبعض يحلو لهم نقد الإسلام واتهام الرسول ﷺ ، فيقولون : إن رسول الله يخطىء والله يُصوِّب له ، ونتعجب : وما يضيركم أنتم ؟ طالما أن ربه هو الذى يُصوِّب له ، هل أنتم الذين صَوَّبتم لرسول الله !؟ ثم مَنْ أخبركم بخطأ رسول الله ؟ أليس هو الذى أخبركم ؟ أليس هذا من قوة أمانته فى التبليغ ويجب أن تحمد له ؟

إذن : فرسول الله ﷺ لا يستنكف أنْ يُربِّيه ربه ؛ لذلك يقول : « إنما أنا بشر يَرِد علىَّ - يعنى من الحق - فأقول : أنا لست كأحدكم ، ويُؤخذ منى فأقول : ما أنا إلا بشر مثلكم » .

وقد تمحَّك هؤلاء كثيراً فى قصة عبد الله بن أم مكتوم ، حينما انشغل عنه رسول الله بكبار قريش ، والمتأمل فى هذه القصة يجد أن ابن أم مكتوم كان رجلاً مؤمناً جاء ليستفهم من رسول الله عن شىء ، فالكلام معه ميسور وأمر سَهْل ، أمّا هؤلاء فهم رؤوس الكفر وكبار القوم ، ولديهم مع ذلك لَدَد فى خصومتهم للإسلام ، والنبى ﷺ يحرص على هدايتهم ويُرهِق نفسه فى جدالهم أملاً فى أنْ يهدى الله بهم مَنْ دونهم .

إذن : النبى فى هذا الموقف اختار لنفسه الأصعب ، وربه يعاتبه على ذلك ، فهو عِتَاب لصالحه ، له لا عليه[1] .

---

(١) وفى هذا يقول الحق سبحانه : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) ﴾ [عبس] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ ﴾

أى : ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، وإنما أنزلناه (تذكرةً) أى تذكيراً (لمَنْ يَخْشَى) الخشية : خَوْف بمهابة ؛ لأن الخوفَ قد يكون خوفاً دون مهابة ، أمّا الخوف من الله فخوْف ومهابة معاً .

﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ۝٤ ﴾

تنزيلاً : مصدر أى : أنزلناه تنزيلاً ، وقد ورد فى نزول القرآن : أنزلناه ، ونزلناه ونزل ، يقول تعالى : ﴿ إنَّا أنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا .. ۝٤ ﴾ [القدر]

لأن القرآن أخذ أدواراً عدَّة فى النزول ، فقد كان فى اللوح المحفوظ ، فأراد الله له أن يباشر القرآن مهمته فى الوجود ، فأنزله من اللوح المحفوظ مرة واحدة إلى السماء الدنيا . فأنزله ـ أى الله تعالى ـ ثم تَنَزَّل مُفرَّقاً حسْب الأحداث من السماء الدنيا على قلب رسول الله ﷺ والذى نزل به جبريل : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ۝١٩٣ ﴾ [الشعراء]

وقوله تعالى : ﴿ مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَـٰوَاتِ الْعُلَى ۝٤ ﴾ [طه]

خَصَّ السموات والأرض ، لأنها من أعظم خَلْق الله ، وقد أعدهما الله ليستقبلا الإنسان ، فالإنسان طرأ على كَوْن مُعَدٍّ جاهز لاستقباله ، فكان عليه ساعة أنْ يرى هذا الكون المُعدَّ لخدمته بأرضه وسمائه ، ولا قدرة له على تسيير شىء منها ، كان عليه أن يُعمِلَ عقله ،

ويستدل بها على الموجد سبحانه وتعالى .

كأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول لك : إذا كان الخالق سبحانه قد أعدَّ لك الكون بما يُقيم حياتك المادية ، أيترك حياتك المعنوية بدون عطاء ؟

والخالق عز وجل خلق هذا الكون بهندسة قيومية عادلة حكيمة تُوفِّر لخليفته في الأرض استبقاءَ حياته ، وتعطيه كل ما يحتاج إليه بقدر دقيق ، واستبقاء الحياة يحتاج إلى طعام وشراب وهواء ، وقد أعطاها الله للإنسان بحكمة بالغة .

فالطعام يحتاجه الإنسان ، ويستطيع أنْ يصبر عليه شهراً ، دون أن يأكل ، ويحتاج إلى الماء ولكن لا يستطيع أنْ يصبر عليه أكثر من عشرة أيام ، ويحتاج إلى الهواء ولكن لا يصبر عليه لحظةً تستغرق عدَّة أنفاس .

لذلك ، فمن رحمته تعالى بعباده أنْ يمتلك بعضُ الناس القوتَ ، فالوقت أمامك طويل لتحتالَ على كَسْبه ، وقليلاً ما يملك أحدٌ الماءَ ، أما الهواء الذي لا صَبْر لك عليه ، فمن حكمة الله أنه لا يملكه أحد ، وإلا لو منع أحد عنك الهواء لمُتَّ قبل أنْ يرضى عنك .

فمن حكمة الله أنْ خلق جسمك يستقبل مُقوِّمات استبقاء الحياة فترة من الزمن تتسع للحيلة وللعطف من الغير ، وحين تأكل يأخذ الجسم ما يحتاجه على قَدْر الطاقة المبذولة ، وما فاض يُختزَن في جسمك على شكل دُهْن يُغذِّي الجسم حين لا يتوفر الطعام .

ومن عجائب قدرة الله أن هذه المادة الدُّهنية تتحول تلقائياً إلى أى مادة أخرى يحتاجـها الجسم ، فإن احتاج الحديد تتحـول كيماوياً إلى الحديـد ، وإن احتاج الزرنيـخ تتحول كـيمـاوياً إلى زرنيخ ، وهى فى الواقع مادة واحدة ، فمَنْ يقدر على هذه العملية غيره تعالى ؟

وبعد أنْ أعطاك مـا يستبقى حـياتك من الطعام والشـراب والهواء أعطاك ما يستبقى نوعك بالزواج والتناسل .

وقوله تعالى : ﴿السَّمَـوَاتِ الْعُلَى ④﴾ [طه] العلا : جمع عُليا ، كما نقول فى جمع كبرى : كُبَر ﴿إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ ㉟﴾ [المدثر]

وهكذا تكتمل مُقوِّمات التكوين العالى لخليفة الله فى الأرض ، فكما أعطاه ما يقيم حـياته ونوعه بخَلْق السمـوات والأرض ، أعطاه ما يُقيم معنوياته بنزول القـرآن الذى يحرس حركاتنا من شراسـة الشهوات ، فالذى أنزل القرآن هو الذى خلق الأرض والسموات العلا .

والصـفـة البـارزة فى هذا التكـوين العـالى للإنسـان هى صـفَـة الرحمانية ؛ لذلك قال بعدها :

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ⑤﴾

فالآية السـابقة أعطتْنا مظهراً من مظاهر العطف والرحـمة ، وهذه تعطينا مظهـراً من مظاهر القَهْـر والغَلَبة ، واسـتواء الرحـمن ـ تبارك وتعالى ـ على العرش يُؤخَذ فى إطار

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. ⑪﴾ [الشورى]

وسبق أن تكلمنا فى الصفـات المشتركة بين الحق سـبحانه وبين

خَلْقه ، فلَكَ سمعٌ وبصر ، ولله سمع وبصر ، لكن إياك أنْ تظن أن سمع الله كسمْعك ، أو أن بصره كبصرك .

كذلك في مسألة الاستواء على العرش ، فللحقِّ سبحانه استواء على عرشه ، لكنه ليس كاستوائك أنت على الكرسي مثلاً[1] .

والعرش في عُرْف العرب هو سرير الملْك ، وهل يجلس الملك على سريره ليباشر أمر مملكته ويدير شئونها إلا بعد أنْ يستتبَّ له الأمر ؟

وكذلك الخالق - جَلَّ وعلا - خلق الكون بأرضه وسمائه ، وخلق الخَلْق ، وأنزل القرآن لينظم حياتهم ، وبعد أن استتبَّ له الأمر لم يترك الكون هكذا يعمل ميكانيكياً ، ولم ينعزل عن كَوْنه وعن خَلْقه ؛ لأنهم في حاجة إلى قيوميته تعالى في خَلْقه .

ألم يقل الحق سبحانه في الحديث القدسي : « يا عبادي ، ناموا ملْءَ جفونكم ، لأنِّي قَيُّوم لا أنام »[2] .

فكَوْنُ الله ليس آلةً تعمل من تلقاء نفسها ، وإنما هو قائم بقيوميته عليه لا يخرج عنها ؛ لذلك كانت المعجزات التي تخرق نواميس الكون دليلاً على هذه القيومية .

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤٣٤١/٦) : « الذي ذهب إليه الشيخ أبو الحسن وغيره أنه مستوٍ على عرشه بغير حَدٍّ ولا كيْف ، كما يكون استواء المخلوقين . وقال ابن عباس : يريد خلق ما كان وما هو كائن إلى يوْم القيامة وبعد القيامة » . وقال ابن كثير في تفسيره (١٤٢/٣) : « المسلك الأسلم في ذلك طريقة السلف : إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة من غير تكييف ولا تحريف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل » .

(٢) أورد ابن كثير في تفسيره (٣٠٩/١) عن ابن عباس أن بني إسرائيل قالوا : يا موسى هل ينام ربك ؟ قال : اتقوا الله ، فناداه ربه عز وجل : يا موسى سألوك هل ينام ربك ؟ فخذ زجاجتين في يديك ، فقم الليلة . ففعل موسى ، فلما ذهب من الليل ثلث نعس فوقع لركبتيه ثم انتعش فضبطهما ، حتى إذا كان آخر الليل نعس فسقطت الزجاجتان فانكسرتا . فقال : يا موسى لو كنت أنام لسقطت السماوات والأرض فهلكت كما هلكت الزجاجتان في يديك » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ ﴾

الحق - تبارك وتعالى - يمتنُّ بما يملكه سبحانه فى السموات وفى الأرض وما تحت الثرى ، والله تعالى لا يمتنُّ إلا بملكية الشيء النفيس الذى يُنتفع به .

وكأنه سبحانه يلفت أنظار خَلْقه إلى ما فى الكون من مُقوِّمات حياتهم المادية ليبحثوا عنها ، ويستنبطوا ما ادَّخره لهم من أسرار وثروات فى السموات والأرض ، والناظر فى حضارات الأمم يجد أنها جاءت إما من حَفْريات الأرض ، أو من أسرار الفضاء الأعلى فى عصر الفضاء .

ولو فهم المسلمون هذه الآية منذ نزلت لَعلموا أن فى الأرض وتحت الثرى وهو : (التراب) كنوزاً وثروات ما عرفوها إلا فى العصر الحديث بعد الاكتشافات والحفريات ، فوجدنا البترول والمعادن والأحجار الثمينة ، كلها تحت الثَّرى مطمورةً تنتظر مَنْ يُنقِّب عنها وينتفع بها .

وقد أوضح العلماء أن هذه الثروات موزعة فى أرض الله بالتساوى ، بحيث لو أخذتَ قطاعات متساوية من أراض مختلفة لوجدتَ أن الثروات بها متساوية : هذه بها ماء ، وهذه مزروعات ، وهذه معادن ، وهذه بترول وهكذا . فهى أشبه بالبطيخة حين تقسمها إلى قطع متساوية من السطح إلى المركز .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ۝٢١ ﴾ [الحجر]

إذن : فالخير موجود ينتظر القَدَر ليظهر لنا وننتفع به .

ثم يقول تبارك وتعالى :

﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ﴾

الحق - سبحانه وتعالى - حينما يطلب من رسوله أن يذكر يريد منه أن يُذكِّر تذكيراً مرتبطاً بنيته ، لا ليقطع العَتْب عن نفسه ، فالمسألة ليست جهراً بالتذكير .

وإذا كان الله تعالى يقول لرسوله ﷺ : إنني سأحرس سرك كما أحرس علانيتك ، وأن الجهر عندى مثل السر ، بل وأخفى من السر ؛ وهو ﷺ مؤتمن على الرسالة فإنه تعالى يقول أيضاً لأمته : إياكم أن تقولوا كلاماً ظاهره فيه الرحمة ، ونيتكم غير مستقرة عليه ؛ لأن الله كما يعلم الجهر يعلم السر ، وما هو أخفى من السر .

وتكلمنا عن الجهر ، وهو أن تُسمع مَنْ يريد أن يسمع ، والسر : أن تخصَّ واحداً بأن تضع فى أذنه كلاماً لا تحب أن يشيع عند الناس ، وتهمس فى أذنه بأنك المأمون على هذا الكلام ، وأنت ترتاح نفسياً حينما تُلقِى بسرِّك إلى مَنْ تثق فيه ، وتأمن ألاَّ يذيعه ، وهناك فى حياة كل منا أمور تضيق النفس بها . فلا بُدَّ لك أن تُنفِّسَ عن نفسك ، كما قال الشاعر :

وَلاَ بُدَّ مِنْ شَكْوَى إِلَى ذِى مُرُوءَةٍ ... يوَاسِيكَ أَوْ يُسلِيكَ أَوْ يتوجَّعُ

فأنت - إذن - فى حاجة لمَنْ يسمع منك ليريحك ، ويُنفِّس عنك ، ولا يفضحك بما أسررْتَ إليه .

ومعنى ﴿ وَأَخْفَى ۝٧ ﴾ [طه] أي : أخْفى من السر ، فإنْ كان سرُّك قد خرج من فمك إلى أذن سامعك ، فهناك ما هو أخْفَى من السر ، أي : ما احتفظتَ به لنفسك ولم تتفوَّه به لأحد .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝١٣ ﴾ [الملك] أي : مكنوناتها قبل أن تصير كلاماً .

وقال أيضاً : ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ .. ۝١٦ ﴾ [ق] فوسوسة النفس ، وذات الصدور هي الأخْفَى من السر ، فلدينَا - إذن - جَهْر ، وسرٌّ ، وأخفى من السر ، لكن بعض العارفين يقول : وهناك في علم الله ما هو أخْفَى من الأخفى ، فما هو ؟ يقول: إنه تعالى يعلم ما سيكون في النفس قبل أن يكون .

وبعد ذلك جاء الحق سبحانه بالكلمة التي بعث عليها الرسل جميعاً :

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨ ﴾

هذه الكلمة (لا إله إلا هو) هي قمة العقيدة ، وقال عنها النبي ﷺ : « خير ما قلته أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلا الله »[1] .

وما دام لا إله إلا الله ، فهو سبحانه المؤْتَمن عليك ، فليس هناك إله آخر يُعقِّب عليه ، فاعمل لوجهه يكْفك كل الأوجه وتريح نفسك أن تتنازعك قوى شتى ومختلفة ، ويُغنيك عن كل غنى .

وحينما دخل أعرابي على رسول الله ﷺ وهو يتكلم مع أبي بكر -

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٣٥٨٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال : « خير الدعاء دعاء يوم عرفة .. » الحديث بتمامه . قال الترمذي : « هذا حديث غريب من هذا الوجه » .

رضى الله عنه ـ لم يفهم من كلامهما شيئاً ، فقال : يا رسول الله أنا لا أحسن دندنتك ولا دندنة أبى بكر ، أنا لا أعرف إلا : لا إله إلا الله محمد رسول الله . فقال ﷺ : « حَوْلَها ندندن يا أخا العرب »[1]

فهى الأساس والمركز الذى يدور حوله الإسلام .

وكلمة (اللهُ) علَم على واجب الوجود بكل صفات الكمال له ، فهو الله الموجود ، الله القادر ، الله العالم ، الله الحيّ ، الله المحيى ، الله الضار . فكل هذه صفات له سبحانه ، لكن هذه الصفات لما بلغتْ حَدَّ الكمال فيه تعالى أصبحتْ كالاسم العلَم ، بحيث إذا أُطلِق الخالق لا ينصرف إلا له ، والرازق لا ينصرف إلا له .

وقد يشترك الخلْق مع الخالق فى بعض الصفات ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم .. ﴿٨﴾ ﴾ [النساء]

فالإنسان أيضاً يرزق ، لكن رزقه من باطن رزق الله ، فهو سبحانه الرازق الأعلى ، ومن بَحْره يغترف الجميع .

وكما فى قوله تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون] وقال تعالى : ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا .. ﴿١٧﴾ ﴾ [العنكبوت]

ومعنى ذلك أن هناك خالقين غيره سبحانه ، ومعنى الخَلْق :

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٣/٤٧٤) وابن ماجه فى سننه (٣٨٤٧) وأبو داود فى سننه (٧٩٢) عن بعض أصحاب النبى ﷺ قال قال النبى ﷺ لرجل : كيف تقول فى الصلاة ؟ قال : أتشهد ، ثم أقول : اللهم إنى أسألك الجنة وأعوذ بك من النار ، أما إنى لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ . فقال النبى ﷺ : « حولها ندندن » .

الإيجاد من عدم ، فالذى جاء بالرمل وصنع منه كوباً فهو خالق للكوب ، فأنت أوجدتَ شيئاً من عدم ، والله تعالى أوجد شيئاً من عدم ، ولكنك أوجدت من موجود الله قبل أن توجد أنتَ ، فهو ـ إذن ـ أحسن الخالقين فى حين لم يضنَّ عليك ربك بأنْ ينصفك ويسميك خالقاً . وهذا يوجب عليك أنْ تنصفه سبحانه وتقول ﴿ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون]

وأيضاً ، فإن الله تعالى إذا احترم إيجادك لمعدوم فسمَّاك خالقاً له ، ولم يَضنّ عليك فأعطاك صفة من صفاته إنما أخبرك أنه أحسن الخالقين ؛ لأنك تُوجد معدوماً يظل على إيجادك ويجمد على هذه الحالة ، لكن الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ يُوجِد معدوماً ويمنحه الحياة ، ويجعله يلتقى بمثله ويُنجب ، فهل يستطيع الإنسان الذى أوجد كوباً أن يجعل منه ذكراً وأنثى ينتجان لنا الأكواب ؟! وهل يكبر الكوب الصغير ، أو يتألم إنْ كُسِر مثلاً ؟!.

إذن : فالخالق سبحانه هو أحسن الخالقين ، وكذلك هو خير الرازقين ، وخَيْر الوارثين ، وخَيْر الماكرين .

وقوله تعالى : ﴿ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [طه] الحُسْنى : صيغة تفضيل للمؤنث مثل : كُبْرى ، تقابل « أحسن » للمذكر . إذن : فهناك أسماء حسنة هى أسماء الخَلْق ، أما أسماء الله فحسنى ؛ لأنها بلغتْ القمة فى الكمال ، ولأن الأسماء والصفات التى تنطبق عليها موجُودة فى الخالق الأعلى سبحانه ، فحين تقول فى أسماء الله تعالى (الرازق) فهى الصفة الحُسْنى لا الحسنة .

لذلك لما أراد رجل يُدْعى (سعد) أن يشاور أباه في خطبة ابنته حسنى وقد تقدم لها رجلان : حسن وأحسن . فقال له أبوه (فحسنى يا سعد للأحسن) .

وقال تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ .. (٢٦) ﴾ [يونس] فلم يقل : حسنة ، لأنهم أحسنوا فاستحقوا الحُسْنى بل وزيادة .

وأسماء الله تعالى هي في الحقيقة صفات ، إلا أنها لما أُطلقت على الحق - تبارك وتعالى - أصبحتْ أسماء . ولكَ أنْ تُسمِّي فتاة زنجية (قمر) وتسمى قِزْماً (الطويل) لأن الاسم إذا أُطلق علَماً على الغير انحلَّ عن معناه الأصلي ولزم العلَمية فقط ، لكن أسماء الله بقيتْ على معناها الأصلي حتى بعد أنْ أصبحتْ علَماً على الله تعالى ، فهي - إذن - أسماء حُسْنى .

وبعد أن تكلَّم الحق - تبارك وتعالى - عن الرسول الخاتم صاحب المنهج الخاتم - فليس بعده نبي وليس بعد منهجه منهج - أراد سبحانه أنْ يُسلِّيه تسليةً تُبيِّن مركزه في موكب الرسالات ، وأنْ يعطيه نموذجاً لمن سبقوه من الرسل ، وكيف أن كل رسول تعب على قَدْر رسالته ، فإنْ كانت الرسالات السابقة محدودة الزمان محدودة المكان ، ومع ذلك تعب أصحابها في سبيلها ، فما بالك برسول جاء لكل الزمان ولكل المكان ؟ لا بُدَّ أنه سيواجه من المتاعب مثل هؤلاء جميعاً .

إذن : فوطِّن نفسك يا محمد على أنك ستلْقَى من المتاعب والصعاب ما يناسب عظمتك في الرسالة وخاتميتك للأنبياء ، وامتداد رسالتك في

الزمان إلى أنْ تقومَ الساعة ، وفى المكان إلى ما اتسعتْ الأرض .

لذلك اختار الحق - تبارك وتعالى - لرسوله ﷺ نبياً من أولى العزم ؛ لأنه جاء لبنى إسرائيل وجاء لفرعون ، وقد كان بنو إسرائيل قوماً ماديين ، أما فرعون فقد ادَّعى الألوهية ، اختار موسى - عليه السلام - ليقصّ على رسول الله قصته ويُسلِّيه فيما يواجهه من متاعب الدعوة ، كما قال تعالى : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَـٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) ﴾ [هود]

وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا[1] مِّنَ الرُّسُلِ .. (٩) ﴾ [الأحقاف]

فأنت يا محمد كغيرك من الرسل ، وقد وجدوا من المشقة على قَدْر رسالاتهم ، وسوف تجد أنت أيضاً من المشقة على قَدْر رسالتك . ونضرب لذلك مثلاً بالتلميذ الذى يكتفى بالإعدادية وآخر بالثانوية أو الجامعة ، وآخر يسعى للدكتوراة ، فلا شكَّ أن كلاً منهم يبذل من الجهد على قَدْر مهمته .

لذلك يقول تعالى :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (٩) ﴾[2]

إذا جاء الاستفهام من الله تعالى فاعلم أنه استفهام على غير حقيقته ، فلا يُرَاد هنا طلب الفهم ، لأن أخبار محمد تأتيه من ربه -

---

(١) أى : ما كنت غريباً ولا عجيباً ولا كنت على غير مثال سابق ، فأنا مثل الرسل السابقين . [القاموس القويم ١/٥٧] .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٣٤٣) : « قال أهل المعانى : هو استفهام وإثبات وإيجاب معناه : أليس قد أتاك ؟ وقيل : معناه قد أتاك . قاله ابن عباس » .

عز وجل ـ فكيف يستفهم منه . إنما المراد بالاستفهام هنا التشويق لما سيأتى كما تقول لصاحبك : هل بلغك ما حدث بالأمس ؟ فيُشوِّقه لسماع ما حدث .

والحديث : أى الخبر عنه سواء أكان بالوحى ، أو بغير الوحى ، كأن حكيت له قصة موسى عليه السلام .. فهل بلغتْك هذه القصة ؟ اسمعها الآن منى :

﴿ إِذْ رَءَا نَارًا[1] فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ[2] أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ ﴾

نلحظ هنا أن السياق لم يذكر قصة موسى من أولها لما قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ .. ۝٧ ﴾ [القصص] ثم خروجه من المدينة خائفاً وذهابه إلى شعيب .. الخ ، وإنما قصد إلى مَنَاط الأمر ، وهى الرسالة مباشرة .

وقوله : ﴿ إِنِّى آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّى آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ۝١٠ ﴾ [طه] آنست : أى أبصرت ، وشعرت بشىء يستأنس به ويُفرَح به ويُطمأن إليه ، ومقابلها (توجست) للشر الذى يخاف منه كما فى قوله : ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧ ﴾ [طه]

(١) قال ابن عباس وغيره : هذا حين قضى الأجل وسار بأهله وهو مقبل من مدين يريد مصر ، وكان قد أخطأ الطريق . وقال وهب بن منبه : استأذن موسى شعيباً فى الرجوع إلى والدته فأذن له فخرج بأهله بغنمه ، وولد له فى الطريق غلام فى ليلة شاتية باردة مثلجة ، وقد حاد عن الطريق وتفرقت ماشيته ، فقدح موسى النار فلم تور المقدحة شيئاً إذ بصر بنار من بعيد على يسار الطريق . قاله القرطبى فى تفسيره (٦/٤٣٤٣) .

(٢) القبس : الشعلة من النار [اللسان ـ مادة : قبس] .

(لَعلِّى) رجاء أنْ أجدَ فيها القبس ، وهو شعلة النار التى تُتَّخذ من النار إنْ أدركت النار وهى ذات لَهَب ، فتأخذ منها عوداً مشتعلاً مثل الشمعة .

وفى سياق آخر قال : (جذوة)[1] وهى النار حينما ينطفىء لهبها ويبقى منها جمرات يمكن أن تشعل منها النار . وفى موضع آخر قال : ﴿ سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ .. ⦗٧⦘ ﴾ [النمل]

وهذه كلها صور متعددة ، وحالات للنار ، ليس فيها تعارض كما يحلو للبعض أن يقول ، فموسى عليه السلام حينما قال ﴿ لَّعَلِّى آتِيكُم .. ⦗١٠⦘ ﴾ [طه] يرجو أن يجد القبس ، لكن لا يدرى حال النار عندما يأتيها ، أتكون قَبَساً أم جَذوة ؟

وقد طلب موسى ـ عليه السلام ـ القَبَس لأهله ؛ لأنهم كانوا فى ليلة مطيرة شديدة البرد ، وهم غرباء لا يعلمون شيئاً عن المكان ، فهو غير مطروق لهم فيسيرون لا يعرفون لهم اتجاهاً ، فماذا يفعل موسى عليه السلام ومعه زوجته وولده الصغير وخادمه ؟

إنهم فى أمسِّ الحاجة للنار ، إما للتدفئة فى هذا الجو القارس ، وإما لطلب هداية الطريق ، لذلك قال : ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ⦗١٠⦘ ﴾ [طه] أى : هادياً يدلّنا على الطريق .

وفى موضع آخر قال : ﴿ لَّعَلِّى آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ .. ⦗٢٩⦘ ﴾ [القصص]

لذلك لما أبصر موسى عليه السلام النار أسرع إليها بعد أنْ طمأن أهله : ﴿ امْكُثُوا إِنِّى آنَسْتُ نَاراً .. ⦗١٠⦘ ﴾ [طه]

---

(١) وذلك فى قوله : ﴿ لَّعَلِّى آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ⦗٢٩⦘ ﴾ [القصص] .

وهذه المسألة من قصة موسى كانت مثارَ تشكيك من خصوم الإسلام ، حيث وجدوا سياقات مختلفة لقصة واحدة ، فمرة يقول : ﴿امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم .. ۝١٠﴾ [طه] ، وفى موضع آخر يقول : ﴿لَعَلِّي آتِيكُم مِنْهَا بِخَبَرٍ .. ۝٢٩﴾ [القصص]

ومرة يقول : (قَبَس) وأخرى يقول (بشهَابٍ قَبَسٍ) ومرة (بجَذْوَة) ومرة يقول : ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ۝١٠﴾ [طه] ومرة يقول : ﴿لَعَلِّي آتِيكُم مِنْهَا بِخَبَرٍ .. ۝٢٩﴾ [القصص]

والمتأمل في الموقف الذي يعيشه الآن موسى وامرأته وولده الصغير وخادمه في هذا المكان المنقطع وقد اكفهرَّ عليهم الجو ، يجد اختلاف السياق هنا أمراً طبيعياً ، فكلٌّ منهم يستقبل الخبر من موسى بشكل خاص ، فلما رأى النار وأخبرهم بها أراد أنْ يُطمئنهم فقال : ﴿سَآتِيكُم .. ۝٧﴾ [النمل] فلما رآهم مُتعلِّقين به يقولون : لا تتركنا في هذا المكان قال : ﴿امْكُثُوا .. ۝١٠﴾ [طه] وربما قال هذه لزوجه وولده وقال هذه لخادمه . فلا بُدَّ أنهم راجعوه . فاختلفت الأقوال حول الموقف الواحد .

كذلك في قوله : قَبَسٍ أو جَذْوةٍ لأنه حين قال : ﴿لَعَلِّي آتِيكُم .. ۝١٠﴾ [طه] يرجو أن يجد هناك القبس ، لكن لعله يذهب فيجد النار جَذْوة . وفي مرة أخرى يجزم فيقول : ﴿سَآتِيكُم .. ۝٧﴾ [النمل]

إذن : هي لقطات مختلفة تُكوِّن نسيج القصة الكاملة ، وتعددتْ الكلمات لأن الموقف قابلٌ للمراجعة ، ولا ينتهي بكلمة واحدة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾

يقال : إن موسى عليه السلام لما أتاها وجد نوراً يتلألأ فى شجرة ، لكن لا خضرةُ الشجرة تؤثر فى النور فتبهته ، ولا النورُ يطغى على خضرة الشجرة فيمنع عنها الخضرة ، فهى - إذن - مسألة عجيبة لا يقدر عليها إلا الله .

فكانت هذه النار هى أول الإيناس لموسى فى هذا المكان الموحش ، وكأن هذا المنظر العجيب الذى رآه إعداد إلهى لموسى حتى يتلقَّى عن ربه ، فليستْ المسألة مجرد منظر طبيعى .

وقوله تعالى : ﴿ نُودِيَ يَٰمُوسَىٰ .. ﴿١١﴾ ﴾ [طه] أى : فى هذه الدهشة ﴿ نُودِيَ .. ﴿١١﴾ ﴾ [طه] فالذى يناديه يعرفه تماماً ؛ لذلك ناداه باسمه ﴿ يَٰمُوسَىٰ .. ﴿١١﴾ ﴾ [طه] وما دام الأمر كذلك فطَمع الخير فيه موجود ، وبدأ موسى يطمئن إلى مصدر النداء ، ويأنَسُ به ، ويبحث عن مصدر هذا الصوت ، ولا يعرف من أين هو ؛ لذلك اعتبرها مسألة عجيبة مثل منظر الشجرة التى ينبعث منها النور .

﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ(١) إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ ﴾

---

(١) اختلف العلماء فى السبب الذى من أجله أمر بخلع النعلين :
- لأنها نجسة ، إذ هى من جلد حمار ميتٍ . قاله كعب وعكرمة وقتادة .
- لينال بركة الوادى المقدس ، وتمس قدماه تربة الوادى . قاله على بن أبى طالب والحسن وابن جريج .
- للخشوع والتواضع عند مناجاة الله .
- إعظاماً لذلك الموضع .
- لتفريغ قلبه من أمر الأهل والولد . وقد يعبر عن الأهل بالنعل ، وكذلك هو فى تعبير الرؤى : من رأى أنه لابس نعلين فإنه يتزوج . [تفسير القرطبى ٦/٤٣٤٥] .

فســاعة أنْ كلَّمـه ربه : ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ .. ⦗١٢⦘ ﴾ [طه] أزال ما في نفسه من العـجب والدهشة لما رآه وسمعـه ، وعلم أنها من الله تعالى فاطمأنَّ واستبشر أنْ يرى عجائب أخرى .

ونلحظ في قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ .. ⦗١٢⦘ ﴾ [طه] أن الحق ـ تبارك وتعالى ـ حينمـا يتحدَّث عن ذاته تعالى يتحدث بضمـير المفرد ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ .. ⦗١٢⦘ ﴾ [طه] وحينما يتـحدث عن فعْله يتحدث بصـيغة الجـمع ، كـما في قـوله عـز وجل : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ⦗١⦘ ﴾ [القدر] ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ .. ⦗٩⦘ ﴾ [الحـجر] ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا .. ⦗٤٠⦘ ﴾ [مريم]

فلمـاذا تكلَّم عن الفـعل بصـيـغة الجـمع ، في حـين يدعـونا إلى توحيـده وعدم الإشراك به ؟ قـالوا : الكلام عن ذاته تعالى لا بُدَّ فـيه من التوحيد ، كما في : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ⦗١٤⦘ ﴾ [طه]

لكن في الفعل يتكلم بصيغة الجمع ؛ لأن الفعل يحتاج إلى صفات متعددة وإمكانات شتَّى ، يحـتاج إلى إرادة تريده ، وقدرة على تنفيذه وإمكانات وعلم وحكمة .

إذن : كل صفات الحق تتكاتف في الفـعل ؛ لذلك جاء الحديث عنه بصيغة الجمع ، ويقولون في النون في قوله : ﴿ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ .. ⦗٩⦘ ﴾ [الحجر] ﴿ نَرِثُ الأَرْضَ .. ⦗٤٠⦘ ﴾ [مريم] أنها : نون التعظيم .

وقـد جاء الخطاب لمـوسى بلفظ الربوبيـة ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ .. ⦗١٢⦘ ﴾ [طه] لإيناس موسى ؛ لأن الربوبيـة عطاء ، فخطابه (بربك) أي الذي يتـولَّى رعـايتك وتربيـتك ، وقد خـلقك من عَدَم ، وأمـدك من عُـدم ،

ولم يقُلْ : إنى أنا الله ؛ لأن الألوهية مطلوبها تكليف وعبادة وتقييد للحركة بافعل كذا ولا تفعل كذا .

وقوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ .. (١٢) ﴾ [طه] أى : ربك أنت بالذات لا الرب المطلق ؛ لأن الرسل مختلفون عن الخَلْق جميعاً ، فلهم تربية مخصوصة ، كما قال تعالى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) ﴾ [طه] وقال : ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ[1] لِنَفْسِي (٤١) ﴾ [طه]

إذن : فالحق تبارك وتعالى يُربِّى الرسل تربيةً تناسب المهمة التى سيقومون بها .

وقوله تعالى : ﴿ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ .. (١٢) ﴾ [طه] هذا أول أمر ، وخَلْع النعل للتواضع وإظهار المهابة ؛ ولأن المكان مُقدَّس والعلة ﴿ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) ﴾[طه] فاخلع نعليك حتى لا تفصل جسمك عن تربة هذا المكان المقدس الطاهر ، ولا تجعل نَعْليك يحولان بينك وبين مباشرة ذرات هذا التراب .

ومن ذلك ما نراه فى مدينة رسول الله من أناس يمشون بها حافيي الأقدام ، يقول أحدهم : لَعلِّى أصادف بقدمى موضع قدم رسول الله ﷺ .

وقوله: ﴿ طُوًى (١٢) ﴾ [طه] اسم الوادى[2] وهذا كلام عام جاء تحديده فى موضع آخر ، فقال سبحانه : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ

---

(١) أى : علَّمتك وربيتك وأنعمت عليك لتكون صنيعة لى تخدمنى وتؤدى الرسالة التى أكلفك إياها واخترتك لها . [القاموس القويم ١/ ٣٨٤] .

(٢) قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وقال الضحاك : هو واد عميق مستدير مثل الطوى . وقال الحسن : ثنيت فيه البركة والتقديس مرتين . وذكر المهدوى عن ابن عباس : أنه قيل له « طوى » لأن موسى طواه بالليل ، إذ مرّ به فارتفع إلى أعلى الوادى . فكأنه قال : « إنك بالواد المقدس » الذى طويته طوى ، أى تجاوزته فطويته بسيرك . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٦/ ٤٣٤٧] . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/ ١٤٤) : « الأول أصح كقوله ﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) ﴾ [النازعات] » .

﴿الْوَادِ الأَيْمَنِ فِى الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ .. (٣٠)﴾ [القصص]

والبعض يرى فى الآية تكراراً ، وليست الآية كذلك ، إنما هو تأسيس لكلام جديد يُوضِّح ويُحدِّد مكان الوادى المقدس طوى أين هو ، فإنْ قلتَ: أين طوى ؟ يقول لك : فى الواد الأيمن ، لكن الواد الأيمن نفسه طويل ، فأين منه هذا المكان ؟ يقول لك : عند البقعة المباركة من الشجرة[1] .

إذن : فالآية الثانية تحدد لك المكان ، كما تقول أنت : أسكن فى حى كذا ، وفى شارع كذا ، فى رقم كذا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٣)﴾

أى : وإنْ كنتُ رباً لك ورباً للكافرين فسوف أزيدك خصوصية لك ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ (١٣)﴾ أى : للرسالة ، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

لذلك لم نزل القرآن على سيدنا رسول الله ﷺ ما اعترض كفار مكة على القرآن ، ولم يجدوا فيه عيباً فيما يدعو إليه من أخلاق فاضلة ومُثُل عليا ، ولم يجدوا فيه مَأْخذاً فى أسلوبه ، وهم أمة ألفتْ الأسلوب الجيد ، وعَشقَتْ آذانها فصاحة الكلام ، فتوجهوا بنقدهم إلى رسول الله فقالوا :

﴿لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ[2] عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف]

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٨٨) : « هذا مما يرشد إلى أن موسى قصد النار إلى جهة القبلة ، والجبل الغربى عن يمينه ، والنار وجدها تضطرم فى شجرة خضراء فى لحف الجبل مما يلى الوادى فوقف باهتاً فى أمرها » .

(٢) المقصود بالقريتين مكة والطائف . وقد اختلفوا فى تعيين الرجل المقصود من كل قرية لينزل عليه القرآن . ذكر غير واحد منهم قتادة أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة وعروة ابن مسعود الثقفى . وعن مجاهد : أنهم يعنون عتبة بن ربيعة . نقله ابن كثير فى تفسيره (٤/١٢٧) ، ثم قال : « والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان » .

فكلُّ اعتراضهم أنْ ينزلَ القرآن على محمد بالذات ؛ لذلك رَدَّ عليهم القرآن بما يكشف غباءهم فى هذه المسألة ، فقال : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ (٣٢) ﴾ [الزخرف] كيف ونحن قد قسمنا بينهم معيشتهم الأدْنى :﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ (٣٢) ﴾ [الزخرف]

وهم يريدون أنْ يقسموا رحمة الله فيقولون : نزل هذا على هذا ، وهذا على هذا ؟

ثم يقول تعالى : ﴿ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٣) ﴾ [طه] مادة : سمع . منها : سمع ، واستمع وتسمَّع . قولنا : سمع أى مصادفة وأنت تسير فى الطريق تسمع كلاماً كثيراً . منه ما يُهمك وما لا يهمك ، فليس على الأذن حجاب يمنع السمع كالجفْنِ للعين ، مثلاً حين ترى منظراً لا تحبه .

إذن : أنت تسمع كل ما يصل إلى أذنك ، فليس لك فيه خيار .

إنما : استمع . أنْ تتكلَّف السماع ، والمتكلم حُر فى أنْ يتكلم أو لا يتكلم .

وتسمَّع . أىْ : تكلَّف أشدَّ تكلُّفاً لكى يسمع .

لذلك ؛ فالنبى ﷺ حين يخبر أنه ستعُم بلوى الغنَاء ، وستنتشر الأجهزة التى ستشيع هذه البلوى ، وتصبها فى كل الآذان رَغْماً عنها يقول : « مَنْ تسمَّع إلى قَيْنَة[1] صب الآنك فى أذنيه » .

---

(١) القينة : الأمة المغنية ، تكون من التزيُّن لأنها كانت تزين . قال أبو منصور : إنما قيل للمغنية قينة إذا كان الغناء صناعة لها ، وذلك من عمل الإماء دون الحرائر . [لسان العرب ـ مادة : قين] .

أى : تكلَّف أنْ يسمع ، وتعمَّد أن يوجه جهاز الراديو أو التليفزيون إلى هذا الغناء ، ولم يقُل : سمع ، وإلاّ فالجميع يناله من هذا الشر رَغْماً عنه .

وهنا قال تعالى : (**فَاسْتَمِعْ**) ولم يقُلْ : تسمَّع : لأنه لا يقترح على الله تعالى أنْ يتكلم ، ومعنى : استمع أى : جَنِّد كلَّ جوارحك ، وهيىء كُلَّ حواسِّك لأن تسمع ، فإنْ كانت الأذن للسمع ، فهناك حواسّ أخرى يمكن أنْ تشغلها عن الانتباه ، فالعين تبصر ، والأنف يشمّ ، واللسان يتكلم .

فعليك أنْ تُجنِّد كل الحواسّ لكى تسمع ، وتستحضر قلبك لتعى ما تسمعه ، وتنفذ ما طلب منك ؛ لذلك حين تخاطب صاحبك فتجده مُنْشغلاً عنك تقول : كأنك لست معنا . لماذا ؟ لأن جارحة من جوارحه شردتْ ، فشغلتْه عن السماع[1] .

وقوله تعالى : ﴿ **لِمَا يُوحَىٰ** ﴿١٣﴾ ﴾ [طه] الوحى عموماً : إعلام بخفاء من أىٍّ لأىٍّ فى أىٍّ ، خيراً كان أم شراً ، أمّا الوحى الشرعى فهو : إعلام من الله إلى رسول أرسله بمنهج خَيْر للعباد ، فإنْ كان الوحى من الله إلى أم موسى مثلاً ، أو إلى الحواريين فليس هذا من الوحى الشرعى . وهكذا تحدَّدَتْ من أىٍّ لأىٍّ فى أىٍّ .

لكن ، كيف ينزل الوحى من الله تعالى على الرسول ؟ كيف تلتقى الألوهية فى عُلُوِّها بالبشرية فى دُنوها ؟ إذن : لا بُدَّ من واسطة ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ **اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ..** ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحج]

(١) قال سفيان بن عيينة : أول العلم الاستماع ، ثم الفهم ، ثم الحفظ ، ثم العمل ، ثم النشر ، فإذا استمع العبد إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ بنية صادقة على ما يحب الله أفهمه كما يحب ، وجعل له فى قلبه نوراً . ذكره القرطبى فى تفسيره (٤٢٤٨/٦) .

فالمصطفى من الملائكة يتقبَّل من الله ، ويعطى للمصطفى من البشر ؛ لأن الأعلى لا يمكن أنْ يلتقى بالأدنى مباشرة :﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ .. (٥١) ﴾ [الشورى]

فاستعداد الإنسان وطبيعته لا تُؤهِّله لهذا اللقاء ، كيف ولما تجلَّى الحق - سبحانه - للجبل جعله دكاً ، ومن عظمته سبحانه أننا لا نراه ولا نتكلم معه مباشرة ، ولا نُحسّه بأىّ حاسة من حواسنا ، ولو حُسَّ الإله بأىِّ حاسة ما استحق أنْ يكونَ إلهاً .

وكيف يُحَسُّ الحق - تبارك وتعالى - ومن خَلْقه وصَنْعته مَا لا يُحَسُّ ، كالروح مثلاً ؟ فنحن لا نعلم كُنْهها ، ولا أين هى ، ولا نُحسّها بأىّ حاسّة من حواسنا ، فإذا كانت الروح المخلوقة لم نستطعَ أنْ ندركها ، فكيف ندرك خالقها ؟

الحق الذى يدَّعيه الناس ويتمسَّحون فيه ، ويفخر كل منهم أنه يقول كلمة الحق ، وكذلك العدل وغيرها من المعانى : أتدركها ، أتعرف لها شكلاً ؟ فكيف - إذن - تطمع فى أنْ تدرك الخالق عز وجل ؟

إذن : من عظمته سبحانه أنه لا تدركه الحواس ، ولا يلتقى بالخَلْق لقاءً مباشراً ، فالمصطفى من الملائكة يأخذ عن الله ، ويعطى للمصطفى من الخَلْق ، ثم المصطفى من الخَلْق يعطى للخَلْق ، ومع ذلك كان ﷺ يجهد ، ويتصبَّب جبينه عَرَقاً فى أول الوحى .

ولذلك شاء الحق سبحانه أنْ يحجبَ الوحى عن رسوله فترة ليستريح من مباشرة المَلك له ، وبانقطاع الوحى تبقى لرسول الله

حلاوة ما أوحى إليه ويتشوّق إلى الوحى من جديد ، فيهون عليه ما يلاقى فى سبيله من مشقة ؛ لأن انشغال القلب بالشىء يُنسى متاعبه .

وقد رُوى أنه ﷺ حين ينزل عليه الوحى يُسمَع حوله دَوِىٌّ كدَوِىِّ النحل[1] ، ولو صادف أن رسول الله وضع رجله على أحد أصحابه حين نزول الوحى عليه فكان الصحابى يشعر كأنها جبل ، وإن نزل الوحى وهو على دابة كانت تنخ وتئن من ثِقَله[2] .

وقد مثَّلنا للواسطة بين الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية بالتيار الكهربائى حين نُوصِّله بمصباح صغير لا يتحمل قوة التيار ، فيضعون له جهازاً ينظم التيار ، ويعطى للمصباح على قَدْر حاجته وإلاّ يحترق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ ﴾

فى الآية قبل السابقة خاطبه ربه : ﴿ إِنِّى أَنَا رَبُّكَ ﴿١٢﴾ ﴾ [طه] ليُطمئنه ويُؤنسه بأنه المربِّى العطوف ، يعطى حتى للكافر الذى يعصاه ، لكن هنا يخاطبه بقوله : ﴿ إِنَّنِى أَنَا ٱللَّهُ ﴿١٤﴾ ﴾ [طه] أى : صاحب التكاليف ، والمعبود المطاع فى الأمر والنهى ، وأوّل هذه

---

(١) عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحى يُسمع عند وجهه دوىٌّ كدوىِّ النحل » . أخرجه أحمد فى مسنده (١/٣٤) ، والحاكم فى مستدركه (٢/٣٩٢) وقال : « حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » .

(٢) عن أسماء بنت يزيد قالت : إنى لآخذة بزمام العضباء ناقة رسول الله ﷺ إذ نزلت عليه المائدة كلها وكادت من ثقلها تدق عضد الناقة . أورده ابن كثير فى تفسيره لسورة المائدة (٢/٢) وعزاه للإمام أحمد .

التكاليف وقمّتها ، والينبوع الذى يصدر عنه كل السلوك الإيمانى :
﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا ﴿١٤﴾ ﴾ [طه]

لذلك قال عنها النبى ﷺ : « خير ما قلت أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله »(١) .

وما دام لا إله إلا هو فلا يصح أنْ نتلقَّى الأمر والنهى إلاَّ منه ، ولا نعتمد إلا عليه ، ولا يشغل قلوبنا غيره ، وهو سبحانه يريد منا أنْ نكون وكلاء : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الفرقان]

فالناصح الفطن الذى لا يتوكل على أحد غير الله ، فربما توكّلت على أحد غيره ، فأصبحت فلم تجده ، وصدق الشاعر حين قال :

اجْعَلْ بربِّكَ كُلَّ عِزِّكَ يَسْتَقِرُّ وَيَثْبُتُ
فَإذَا اعْتَزَزْتَ بِمَنْ يَمُوتُ فَإنَّ عِزَّكَ مَيِّتُ

فكأن الحق سبحانه فى قوله : ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا ﴿١٤﴾ ﴾ [طه] يقول لموسى : لا تخفْ ، فلن تتلقى أوامر من غيرى ، كما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [الإسراء]

أى : لذهبَ هؤلاء الذين يدَّعُون الألوهية إلى الله يجادلونه أو يتودَّدون إليه ، ولم يحدث شيء من هذا .

ويشترط فيمن يُعطى الأوامر ويُشرِّع ويُقنِّن ألاَّ ينتفع بشيء من ذلك ، وأن تكون أوامره ونواهيه لمصلحة المأمورين ، ومن هنا

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٣٥٨٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وتمامه : « خير الدعاء دعاء يوم عرفة ، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » قال الترمذى : « هذا حديث غريب من هذا الوجه » .

يختلف قانون الله عن قانون البشر الذى يدخله الهوى وتخالطه المصالح والأغراض ، فمثلاً إنْ كان المشرِّع والمقنِّن من العمال انحاز لهم ورفعهم فوق الرأسماليين ، وإن كان من هؤلاء رفعهم فوق العمال .

وكذلك ألاَّ يغيب عنه شيء يمكن أنْ يُستدرك فيما بعد ، وهذه الشروط لا توجد إلا فى التشريع الإلهى ، فله سبحانه صفات الكمال قبل أن يخلق الخَلْق .

لذلك قال بعدها : ﴿ فَاعْبُدْنِي ﴿١٤﴾ ﴾ [طه] بطاعة أوامرى واجتناب نواهيَّ ، فليس لى هَوَى فيما آمرك به ، إنما هى مصلحتك وسلامتك .

ومعنى العبادة : الناس يظنون أنها الصلاة والزكاة والصوم والحج ، إنما للعبادة معنى أوسع من ذلك بكثير ، فكلُّ حركة فى الحياة تؤدى إلى العبادة ، فهى عبادة كما نقول فى القاعدة : كُلُّ ما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب .

فالصلاة مثلاً لا تتم إلا بستْر العورة ، وعليك أنْ تتأمل قطعة القماش هذه التى تستر بها عورتك : كم يد ساهمتْ فيها منذ كانتْ بذرة فى الأرض ، إلى أنْ أصبحتْ قماشاً رقيقاً يستر عورتك ؟ فكلُّ واحد من هؤلاء كان فى عبادة وهو يُؤدِّى مهمته فى هذه المسألة .

كذلك رغيف العيش الذى تأكله ، صنبور المياه الذى تتوضأ منه ، كم وراءها من أيادٍ وعمال ومصانع وعلماء وإمكانات جُنِّدَتْ لخدمتك ، لتتمكن من أداء حركتك فى الحياة ؟

لذلك ، فالحق - تبارك وتعالى - حينما يُحدِّثنا عن الصلاة يوم الجمعة يقول : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ

﴿ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ⑨ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ⑩ ﴾ [الجمعة]

وهكذا أخرجنا إلى الصلاة من عمل ، وبعد الصلاة أمرنا بالعمل والسعى والانتشار فى الأرض والابتغاء من فضل الله ، فمخالفة الأمر فى : ﴿ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ⑨ ﴾ [الجمعة] كمخالفة الأمر فى : ﴿ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ⑩ ﴾ [الجمعة]

وخَصَّ البيع هنا ؛ لأن البائع أحرص على بيْعه من المشترى على شرائه ، وربما كان من مصلحة المشترى ألاَّ يشترى .

فالإسلام - إذن - لا يعرف التكاسل ، ولا يرضى بالتنبلة والقعود ، ومَنْ أراد السكون فلا ينتفع بحركة متحرِّك .

وسيدنا عمر - رضى الله عنه - حينما رأى رجلاً يقيم بالمسجد لا يفارقه سأل : ومَنْ ينفق عليه ؟ قالوا : أخوه ، قال : أخوه أعبد منه . لماذا ؟ لأنه يسهم فى حركة الحياة ويوسع المنفعة على الناس .

إذن : فكلُّ عمل نافع عبادة شريطة أنْ تتوفر له النية ، فالكافر يعمل وفى نيته أنْ يرزق نفسه ، فلو فعل المؤمن كذلك ، فما الفرق بينهما ؟ المؤمن يعمل ، نعم ليقوتَ نفسه ، وأيضاً ليُيسِّر لإخوانه قُوتَهم وحركة حياتهم . فسائق التاكسى مثلاً إذا عمل بمبلغ يكفيه ، ثم انصرف إلى بيته ، وأوقف سيارته ، فمَنْ للمريض الذى يحتاج مَنْ يُوصِّله للطبيب ؟ والبائع لو اكتسب رزقه ، ثم أغلق دكانه مَنْ يبيع للناس ؟

إذن : اعمل لنفسك ، وفى بالك أيضاً مصلحة الغير وحاجتهم ، فإنْ فعلتَ ذلك فأنت فى عبادة . تعمل على قَدْر طاقتك ، لا على قَدْر حاجتك ، ثم تأخذ حاجتك من منتوج الطاقة ، والباقى يُرَدُّ على الناس إما فى صورة صدقة ، وإما بثمن ، وحَسْبك أنْ يسرت له السبيل .

إذن : نقول : العبادة كل حركة تؤدى خدمة فى الكون نيتك فيها لله .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ ﴾ [طه] فلماذا خَصَّ الصلاة دون سائر العبادات ؟

قالوا : لأن الصلاة هى العبادة الدائمة التى لا تنحلّ عن المؤمن ، ما دام فيه نَفَس ، فالزكاة مثلاً تسقط عن الفقير ، والصيام يسقط عن المريض ، والحج يسقط عن غير المستطيع ، أمّا الصلاة فلا عذر أبداً يبيح تركها ، فتصلى قائماً أو قاعداً أو مضطجعاً ، فإنْ لم تستطع تصلى ، ولو إيماءً برأسك أو بجفونك ، فإنْ لم تستطع فحَسْبُك أن تخطرها على قلبك ، ما دام لك وَعْى ، فهى لا تسقط عنك بحال .

كذلك ، فالصلاة عبادة مُتكرِّرة : خمس مرات فى اليوم والليلة ؛ لتذكرك باستمرار إنْ أنستْك مشاغل الحياة رب هذه الحياة ، وتعرض نفسك على ربك وخالقك خمس مرات كل يوم . وما بالك بآلة تُعرَض على صانعها هكذا ، أيمكن أن يحدث بها عُطْل أو عَطَب ؟

أما الزكاة فهى كل عام ، أو كل محصول ، والصوم شهر فى العام ، والحج مرة واحدة فى العمر .

لذلك ، كان النبى ﷺ كلما حَزَبه[1] أمر قام إلى الصلاة[2] ليعرض نفسه على ربه وخالقه عز وجل ، ونحن نصنع هذا فى الصنعة المادية حين نعرض الآلة على صانعها ومهندسها الذى يعرف قانون صيانتها .

وفى الحديث الشريف : « وجعلت قرة عينى فى الصلاة »[3]

وسبق أن ذكرنا أن للصلاة أهميتها ؛ لأنها تُذكِّرك بربك كل يوم خمس مرات ، وتُذكِّرك أيضاً بنفسك ، وبقَدر الله فى الآخرين حين ترى الرئيس ومرؤوسه جَنْباً إلى جَنْب فى صفوف الصلاة ، فإنْ جئتَ قبل رئيسك جلستَ فى الصف الأول ، وجلس هو خلفك ، ثم تراه وهو مُنكسر ذليل لله تعالى ، وهو يعرف أنك تراه على هذه الهيئة فيكون ذلك أدْعى لتواضعه معك وعدم تعاليه عليك بعد ذلك .

وكم رأينا من أصحاب مناصب وقيادة يبكون عند الحرم ، ويتعلقون بأستار الكعبة وعند الملتزم ، وهو العظيم الذى يعمل له الناس ألف حساب . ففى الصلاة - إذن - استطراق للعبودية لله تعالى .

لذلك من أخطر ما مُنى به المسلمون أنْ تجعلَ فى المسجد أماكن خاصة لنوعية معينة يُخلَى لها المكَان ، ويصاحبها الحرس حتى فى

---

(١) حزبه الأمر يحزبه : نابه واشتد عليه . وأمر حازب وحزيب : شديد . وفى الحديث : كان إذا حزبه أمر صلَّى ، أى إذا نزل به مهم أو أصابه غم . [لسان العرب - مادة : حزب] .

(٢) عن حذيفة رضى الله عنه قال : « كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر صلى » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٨٨) وأبو داود فى سننه (١٣١٩) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣/١٢٨ ، ١٩٩ ، ٢٨٥) والنسائى فى سننه (٧/٦١) والحاكم فى مستدركه (٢/١٦٠) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبى من حديث أنس بن مالك ، وتمام الحديث : « حُبب إلىَّ من الدنيا : النساء والطيب .. » الحديث .

بيت الله ، ثم يأتى فى آخر الوقت ويجلس فى الصف الأول ، وآخر يفرش سجادته ليحجز بها مكاناً لحين حضوره ، فيجد المكان خالياً .

وينبغى على عامة المسلمين أن يرفضوا هذا السلوك ، وعليك أنْ تُنحِّي سجادته جانباً ، وتجلس أنت ؛ لأن أولوية الجلوس بأولوية الحضور ، فقد صفها الله فى المسجد إقبالاً عليه . وهذه العادة السيئة تُوقع صاحبها فى كثير من المحظورات ، حيث يتخطى رقاب الناس ، ويُميِّز نفسه عنهم دون حق ، ويحدث انتقاص عبودى فى بيت الله .

ولأهمية الصلاة ومكانتها بين العبادات تميَّزت فى فرضها بما يناسب أهميتها ، فكُلُّ العبادات فُرِضَتْ بالوحى إلا الصلاة ، فقد استدعى الحق رسوله الصدق ليبلغه بها مباشرة لأهميتها .

وقد ضربنا لذلك مثلاً - ولله المثل الأعلى - بالرئيس إذا أراد أنْ يُبلِّغ مرؤوسه أمراً يكتب إليه ، فإنْ كان الأمر مهماً اتصل به تليفونياً ، فإنْ كان أهمّ استدعاه إليه ليُبلِّغه بنفسه . ولما قرَّبه الله إليه بفرض الصلاة جعل الصلاة تقرُّباً لعباده إلى الله .

وقوله : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ ﴾ [طه] أقام الشيء : جعله قائماً على أُسس محكمة ، فإقامة الصلاة أن تؤديها مُحكَمة كاملة الأركان غير ناقصة .

﴿ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ ﴾ [طه] أى : لتذكرى ؛ لأن دوام ورتابة النعمة قد تُنسيك المنعم ، فحين تسمع نداء (الله أكبر) ، وترى الناس تُهرَع إلى بيوت الله لا يشغلهم عنها شاغل تتذكر إنْ كنتَ ناسياً ، وينتبه قلبك إنْ كنتَ غافلاً .